

## اللون والرمز في شخصيات "الحروب الاهلية في غرناطة"

### للروائي الاسباني خينيس بيريز دي ايتا

#### المقدمة :

ازداد اهتمام الدراسات المقارعة في الوقت الراهن دراسة صورة الآخر في اداب وثقافات الشعوب المختلفة نظراً لما تحمله تلك الصورة من دلالات إذ تعد مصدراً مهماً من مصادر معرفة الآخر بما تقدمه من معلومات عن شعب أو مجتمع أجنبي، كما تسهم في تعميق فهم الذات بالذات اتفاقاً أو اختلافاً عنها. فالصور التي يقدمها ادب ما عن الشعوب الأخرى "تشكل مصدراً أساسياً من مصادر التفاهم بين الأمم والدول والثقافات سواء أكان هذا إيجابياً أم سلبياً. ان المطالع للادب الاسباني المعاصر لسقوط غرناطة يتبين له وجود تباين في هذا الادب : التيار الاول يشير الى الجوانب الايجابية عند المسلم، اما التيار الثاني فيشن حملة شرسة ضد المسلمين. ممندث بيدال يؤكد ان مواقف الابداء الاسبان من الجار المسلم قد تغير عند نهاية الوجود العربي في اسبانيا، ويتحدث عن انتشار تيار اطلق عليه حب المسلم او التعاطف معه ويؤكد عندما لم يبقى في اسبانيا سوى مملكة غرناطة والتي لم تعد تشكل خطراً ، تحولت رغبة القضاء على الوجود العربي في اسبانيا الى الميل الى تلك الحضارة الشرقية الغنية بالاداب والمعارف.

وهكذا نرى ظهور تياران في الادب الاسباني: الاول يشير الى الجوانب الايجابية عند المسلم كمحاولة لمنع طرده من البلاد او نوع من التعاطف مع من تصاهروا وعاشوا معهم لقرون عديدة اهم عمل ادبي الذي يمثل هذا التيار هو رواية *ابن سراج*. والتيار الثاني يواصل حملات التبشير مستعملاً عنصري التهيب والترغيب لتحويل المسلمين عن عقيدتهم. الذي تمثله رواية *الحروب الاهلية في غرناطة* للروائي خينيس بيريث دي ايتا (1595).

موضوع بحثنا يتركز في التيار الثاني الذي نحاول من خلاله ان نسلط الضوء على صورة ادبية واحدة من الصور التي تبناه خينيس بيريث دي ايتا في روايته وهو استخدام اللون والرمز في شخصيات *الحروب الاهلية في غرناطة*. قيل إن بيريث دي ايتا موريسكى، واستند من يتبنى هذا الرأي إلى أن المؤلف من مولا، وهي القرية التي ظل الموريسكيون يقيمون فيها إلى ما بعد الطرد، وإلى أن المؤلف اسمه خينيس، لكن الثابت بالفعل هو أن بيريث دي ايتا كان إسكافيا ومن ورشته كانت تخرج عربات تحمل كل أنواع الزينات والاختراعات لاحتفال المدينة بالأعياد المختلفة. من الثابت كذلك تأثر الاسكافي بيريث دي ايتا والحرفيين أمثاله بالفن الموريسكى. لعل هذا يفسر لنا الوصف الدقيق للملابس الموريسكية ولاحفالات أهل غرناطة

#### شخصيات رواية الحروب الاهلية في غرناطة:

شخصيات رواية الحروب الاهلية في غرناطة تقسم بشكل رئيس الى قسمين :

١ - شخصيات غربية – واقعية – تاريخية- اسطورية

٢ - شخصيات شرقية – واقعية – تاريخية

ما يعيننا هنا هي الشخصيات الشرقية والتي تلعب دورا رئيس في رواية **الحروب الالهية في غرناطة** التي ظهرت بصفات هجينة (مزيج من الثقافة الغربية والشرقية) وفي اكثر الاحيان تظهر الشخصيات الشرقية بصورة غريبة فمثلا يصف الكاتب الملابس المورسكية التي يرتديها فرسان وسيدات البلاط الملكي في غرناطة مزينة برموز والوان من التراث الغربي. فالقارئ لرواية خينيس بيريث دي ايتا يرى أن مسلمى غرناطة كانوا يتصفون بعبادات وتقاليد من التراث الغربي حتى قبل سقوط مملكتهم فى يد فيرناندو الكاثوليكي، ولا نرى سوى أن هذا من باب الأدب الدعائي والتبشيري الذي تميزت به رواية **الحروب الالهية في غرناطة** الذي عهدناه فى أدب القرن السادس عشر الاسبانى.

في بحثنا هذا ارتائنا التركيز على دور ومعانى الالوان والرموز التي تحملها شخصيات الرواية ( الشخصيات الشرقية بالتحديد). فقد حاول خينيس بيريث دي ايتا من خلال استخدام اللون والرمز اظهار شخصية ابطاله وذلك لان للون القدرة على إحداث تأثيرات نفسية على الإنسان، إذ إن لديه القدرة على الكشف عن شخصية الإنسان؛ ذلك لأن كل لون من الألوان مرتبط بمفاهيم معينة ويملك دلالات خاصة. والقارئ لرواية **الحروب الالهية في غرناطة** يمكنه من خلال هذه الالوان والرموز تحليل شخصيات الرواية تحليلاً يتضمن تقويم القدرات وبيان الحالات العاطفية والفكرية والنفسية لتلك الشخصيات.

### الالوان :

اللون من أهم وأجمل ظواهر الطبيعة ومن اهم العناصر التي تشكل الصورة الادبية لما يشتمل عليه من شتى الدلالات الفنية، الدينية، النفسية، الاجتماعية الرمزية والاسطورية.استخدم اللون لشتى الدلالات فيما يدل عليه مباشرة كالأخضر والأصفر والأبيض والأحمر والأزرق والأسود وما يدل عليه غير مباشر كالليل والنهار والنور والظلام. لاشك أن اللون يرتبط ارتباطا وثيقا بجميع مجالات الحياة وظواهر الكون وله علاقة وطيدة بالعلوم الطبيعية وعلم النفس، الدين والثقافة والأدب، الفن والأسطورة. هذا وقد يعمق اللون علاقة الأدب بفن الرسم لأنه كما يقول سيمونيدس الشاعر اليوناني: الرسم شعر صامت والشعر تصوير ناطق. يعتقد بعض الادباء أنه لا بد من تدمير الواقع الخارجي لخلق واقعية جديدة ولحصول هذا الغرض لا بد من الالتجاء الى الألوان. فللعوامل الاجتماعية كالآداب، السنن، التقاليد والعبادات لها اثرها في اختيار وتفضيل اللون. فليس السواد لون الحداد والحزن عند كل الشعوب كما أن البياض ليس لون الفرح والسرور عند الجميع.والبيئة الجغرافية والأقليمية ايضا لها اثر يذكر في اختيار اللون، لأن كل شعب يمكن أن يحبذ لونا ويستثمره وفقا لظروفه البيئية والجغرافية. اذن وظائف أي لون تختلف باختلاف الحضارات والمجموعات البشرية. فالألوان بالإضافة الى كونها مظهرا من مظاهر الواقعية تكون حاملة ارث ثقافي حيث تتوضع في الألوان جملة من البنى الأسطورية الحضارية المؤسسة لثقافات الشعوب.

التدقيق في نص رواية **الحروب الالهية في غرناطة** يرشدنا الى أن استخدام اللون في هذه الرواية ليس صدفة وليس لتتميق الكلام فحسب بل له ارتباط وثيق بجميع المستويات البنيوية والبلاغية والتعبيرية للنص الأدبي. فلستخدام وتوظيف الألوان في هذه الرواية كان خطوة هامة لفهم المفردات والتراكيب والصور الادبية. هدفنا من هذه الدراسة التعرف على الدلالات التعبيرية والبلاغية للألوان وأثرها في جماليات هذا النص الادبي. ففي كل مشاهد الرواية (الاحتفالية والقتالية) يلعب اللون دورا اساسا في ارسال رسالة من طرف الى طرف اخر. فنرى في مشهد احتفالي او قتالي تظهر المرأة ترتدي ثوبا بنفس

لون ملابس فارسها او من تحب تأكيدا منها له على حبها . او تظهر مرتديا ثوبا بلون اخر يعكس مشاعر الفرح او الحزن او الغيرة . او في مشهد قتالي يلبس ابطاله لونا يشير الى الى صفات التي يريد الكاتب اظهارهم بها فمثلا في اخر فصل من الرواية في مشهد قتالي بين فرسان قبيلة ابن سراج اللذين تميزوا بالاخلاص والوفاء والشجاعة وفرسان قبيلة الثغريين اللذين تميزوا بالخيانة التي يظهر فرسان القبيلة الاولى بملابس ذات لون الابيض وازرق وفرسان القبيلة لاخيرة بملابس ذات لون اصفر تأكيدا منه على الصفات التي لازمت هؤلاء الفرسان طوال احداث الرواية.

"(los abencerrajes) hecho el desafio a los moros Zegrís,... y no muy lejos del real se hallaron los Zegrís muy bien aderezados, todos vestidos de su *acostumbrada* librea **pajiza**... los bravos abencerrajes salieron con su *acostumbrada* librea **azul** y **blanco**..."<sup>1</sup>

نلاحظ هنا الكاتب استخدم كلمة (*acostumbrada*) للتأكيد على ان الصفات التي ترمز لها هذه الالوان هي صفات الملازمة لشخصياته طوال احداث الرواية.

من اهم الالوان التي استخدمها خينيس بيريث دي ايتا من اجل عكس شخصيات ابطاله هي الابيض – الاسود- الازرق- الاخضر – الاصفر- الاحمر. ولكي نفهم جيدا معنى كل لون من هذه الالوان يجب علينا ان ندرس المعنى في الثقافتين الشرقية والغربية وهذه المقارنة ستوصلنا بالنتيجة الى معنى الالوان في رواية خينيس بيريث دي ايتا.

### 1-اللون الابيض:

هذا اللون، لون الطهارة والصفاء والنقاء والمحبة والخير والحق والعدالة. هذا اللون يقابل السواد في كل دلالاته. اذن يمثل في الموروث الشرقي الأوصاف الأيجابية والحالات المطلوبة والخصائص المحمودة. ورد اللون الابيض إحدى عشرة مرة صراحة في القرآن الكريم:

(يوم **تبيض** وجوه وتسود وجوه وأما الذين **أبيضت** وجوههم ففي رحمة الله) (آل عمران، 107).

كان اللون الابيض في عصر ما قبل الاسلام وفي صدر الاسلام هو لون الحزن والحداد عند العرب وقد استمر في الوقت الحاضر في بعض البلدان العربية. اما في الموروث الغربي يرمز هذا اللون ايضا الى النقاء والصفاء والاخلاص. في رواية خينيس بيريث دي ايتا هذا اللون يميز ملابس شخصيات الرواية في المشاهد الاحتفالية ويرمز الى الاخلاص والنقاء والسعادة كما هو حال زيد احد ابطال الرواية عندما ارتدى ملابس بيضاء عند لقاءه بالمرأة التي يحب وذلك تعبيراً عن سعادته ووفاءه لها.

"El día que hablaba con su Zaida se ponía (Zaide) de encarnado y **blanco**, señal de **alegría** y **contento**"<sup>2</sup>

<sup>1</sup> خينيس بيريث دي ايتا: رواية الحروب الاهلية في غرناطة، ثراكوثا، 1595، الفصل 17، ص 406.

## 2- اللون الاسود:

السواد في الفيزياء بمعنى فقد اللون. أي كل شيء لا تبلغ منه موجات الى العين يرى أسود. هذا اللون هو لون الظلام، الصمت، اليأس والخيبة والفناء ورمز الحزن والهم والموت والأخفاق ورد اللون الأسود سبع مرات في القرآن الكريم، بعضها تمثل الكفر والأرتداد والعصيان والتكذيب:

(ترى الذين كذبوا على الله وجوههم **مسودة**) (الزمر، 60).

(يوم تبيض وجوه **وتسود** وجوه فأما الذين **أسودت** وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) (آل عمران، 106).

-وقد يكنى به عن شدة الغضب وحدة الغيظ:

(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه **مسودا** وهم كظيم) (النحل، 58).

في المروث الغربي اللون الاسود يرمز لنفس الشيء. لذا في روايتنا كان اللون الاسود رمز الحزن والموت واليأس كما في المشهد عندما حضر حاكم قلعة حطين الى الملك الغرناطي مترديا السواد وحاملا خبر سقوط القلعة بيد الاسبان.

"Ese que primero llega  
Es ese Zegrí nombrado  
Con una marlota **negra**  
Señal de **luto** mostrando"<sup>3</sup>

## ٣ - اللون الازرق:

يقترّب اللون الأزرق في معانيه من اللون الأسود في الثقافة العربية، ذلك أنه لون كربه، لأنه لون الموت والمرض والكآبة والحزن، لم يرد هذا اللون في القرآن الكريم الا مرة واحدة:

(يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ **زرقا**) (طه، 102).

فهذا اللون كان لون الحداد والحزن في عهد الموحدين كما يذكر أحمد بن محمد المقرئ التلمساني في كتابه **نفح الطيب من**

**غصن الاندلس الرطيب** (نفح الطيب: ج7، ص403)

ففي ثقافتنا العربية، الأزرق ليس لوناً محبباً على الدوام، فإن أسوأ الحساد، هم ذوو العيون الزرق، ومنهم جاء المثل الشعبي، الذي يصف الحاسد "عيون زرق وأسنان فرق".

<sup>٢</sup> نفس المصدر السابق، الفصل 6، ص 94.

<sup>٣</sup> نفس المصدر السابق، فصل 17، ص 398.

وفي الوقت المعاصر نجد أن هذا الرفض للون الأزرق قد قل بسبب الاحتكاك الثقافي بين الأمم، فيعتبر اللون الأزرق في الثقافة الغربية لون الوقار والاصالة والسكينة والهدوء والصدقة والحكمة والتفكير اللون الذي يشجع على التخيل الهادئ والتأمل الباطني ويرمز الى الصدق والحكمة والخلود والأخلاص وهو لون المميز لرجال للتعبير عن اللولاء للدين المسيحي. وقد لجأ خينيس بيريث دي ايتا الى المعنى الغربي عندما جمع اللون الازرق والابيض ليعكس شخصيات ابطال روايته الايجابية .

فكل المشاهد الخاص بفرسان قبيلة بنو السراج للون لملابسهم واعلامهم وعدتهم هو اللون الازرق مع اللون الابيض دليل صدقهم وولائهم واخلاصهم :

"los caballeros abencerrajes ordenaba su cuadrillo..., acordaron de sacar todos sus libreas de damasco **azul**, forradas en tela de fina plata, con penachos **azules y blancos**"<sup>4</sup>

ولجأ الى المعنى الشرقي عندما جمع اللون الازرق مع الاصفر ليشير الى الغيرة وخيبة الامل والخيانة في الحب عند ابطاله:

"el uno venía vestido con una marlota **amarilla**... el adarga, la media **amarilla** y la media **azul** y el la media azul pintado un sol, metido entre nubes negras, y debajo del sol, una luna lo eclipsaba, con una letra que decía en arábigo deste suerte:

Ya se **eclipsó** mi **esperanza**  
Y se **aclaró** mi **tormento**  
**Ajeno** soy de **contento**"

#### ٤ - اللون الاخضر:

اللون الأخضر هو لون الحياة والحركة والسرور لأنه يهدئ النفس ويسرها وهو تعبير عن الحياة والخصب والنماء والأمل والسلام والأمان والتفاؤل وهو لون الربيع، الطبيعة الحية، الحقائق، الأشجار، الأغصان والبراعم. يعتبر الأخضر في الفكر الديني رمزا للخير والأيمان وأنه أكثر شيوعا في الروايات العربية الإسلامية وقباب المساجد وستار الكعبة. يمكن أن نقول أن اللون الأخضر له في الثقافة العربية وظيفة حليلة تشبه اللون الأزرق في الثقافة الغربية (النقاوة- العقلانية- الخير). اضافة الى ذلك اللون الاخضر في الثقافتين هو لون الامل في رواية الحروب الاهلية في غرناطة اللون الاخضر في مشاهد عديدة يرمز الى الامل في الحب وخصوصا عندما يرافق اللون الاحمر.

"ya se habían corrido cuatro toros bravos, ... cuando pareció en la plaza un gallardo caballero sobre un poderoso caballo, su marlota y capellar era **verde**, como hombre que vivía con **esperanza**"

كما يرمز اللون الاخضر في روايتنا الى الكبرياء والاخلاص في مشهد مبارزة بين فارسين مسلمين:

"el otro caballero venía vestido de una marlota la mitad roja y la mitad **verde**... con unas letras de oro muy bien cortadas que decían así:

<sup>٤</sup> نفس المصدر السابق، الفصل 6، ص 106.

Mi **lucero** no oscurece  
Antes **oscurece** el día  
Y esto me causa **alegría**  
Porque mi **gloria** más **crece**"<sup>5</sup>

فنى اللون الاخضر هنا يصاحب مصطلحات الازدهار والمجد.

## 5- اللون الأصفر:

يعتبر اللون الأصفر من أشد الألوان فرحا لأنه منير للغاية ومبهج. هذا اللون يمثل قمة التوهج والأشراق ويعد أكثر الألوان اضاءة ونورانية، لأنه لون الشمس ومصدر الضوء واهبة الحرارة والحياة والنشاط والسرور. واستخدمه المصريون القدماء رمزا لألهة الشمس وللوقاية من المرض. للون الأصفر دلالة اخرى تناقض الأولى وهي دلالة على الحزن والهم والذبول والكسل والموت والفناء ربما الدلالة هذه ترتبط بالخريف وموت الطبيعة والصحارى الجافة وصفرة وجوه المرضى. ورد اللون الأصفر في القرآن كريم خمس مرات، منها:

(... قال أنه يقول أنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين) (بقرة، 69).

الجملة الوصفية (تسر الناظرين) في الآية يبين دلالة هذا اللون المبهجة في الطبيعة فـ (تسر الناظرين) أي تعجب الناظرين وتفرحهم بحسنها. وفي الآيات الأربعة الباقية المذكور فيها هذا اللون لا نجد دلالة إلا ما يدل على المرض والموت والفناء:

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال

والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه **مصفرا** ثم يكون **حطاما**) (الحديد، 20).

اذن في الآية صورة تمثيلية لنهاية الحياة وفناء لذائذها. فالأصفرار في هذه الآية يدل على الذبول، الموت والأضمحلال وكل الصورة في خدمة هداية الناس وتوجيههم نحو السعادة.

اللون الاصفر على العموم يشير في الثقافة والموروث الشرقي الى المرض والاضطرابات النفسية اما الموروث الغربي فرمز اللون الاصفر يعتمد على تدرجاته فاذا كان اصفر تبني فيشير الى الغنى والسلطة واذا كان اصفر صافيا يشير الى خيبة الامل واليأس والخيانة في الحب واذا كان اصفر مخضرا فيشير الى المرض والشحوب. كما ذكرنا سابقا عند تناول اللون الازرق.

"(los abencerrajes) hecho el desfio a los moros Zegrís,... y no muy lejos del real se hallaron los Zegrís muy bien aderezados, todos vestidos de su **acostumbrada** librea **pajiza**"

خينيس بيريث دي ايتا البس فرسان قبيلة الثغريين اللون الاصفر بالخيانة

## 6- اللون الأحمر:

اللون الأحمر في الثقافتين الشرقية والغربية له معان متضادة. فتارة هو لون القوة والحياة ،لون الحب الملهب والتفاؤل والشباب.أكثر الشعراء القدماء استخداموا هذا اللون نتيجة وعيهم الجمالي والمعرفي لدوره في أصل الوجود والواقع، لذلك تنوعت الفاظه التي كثرت لتعبر عن ماهيته وقيمه ومدى نقائه ودرجة تشعبه، من ذلك قولهم أحمر، أحمر قاني، ومدمي. كما يمثل وتارة اخرى هـ و اللون الشر والحرب والقتل والدم الانتقام.

في رواية خينيس بيريث دي ايتا اللون الاحمر يلعب دورا اساسيا فهو على امتداد الرواية يرمز الى مشاعر السعادة والحب عند ابطال الرواية. وفي مشاهد اخرى يرمز الى الحرب كما في المقطع التالي:

"el caballero luego puso un pendoncillo **rojo** en la punta de su lanza, que era señal de pedir **batalla**"

## الرموز:

استعمال الرمز والصور من العناصر الاساسية في رواية الحروب الاهلية في غرناطة فكل المشاهد الاحتفالية والقتالية في الرواية ابطالها يحملون رموزا وصورا على ملابسهم او معداتهم وعادة ماترافق هذه الصور والرموز نص كتابي شعري اونثري تفسر الصورة او الرمز والتي تعبر عن مشاعر واحاسيس حاملها. فيستخدم الشمس للتعبير عن الحياة والجمال ويستخدم صور من الاساطير الاغريقية كالتنين والرجل البري المتوحش والعنقاء للتعبير عن القوة وكل هذه الصور هي من المورث والثقافة الغربية

"(los abencerrajes llevaban) por divisa en las adargas un **salvaje**, que un bastón deshacía un mundo, con una letra a los pies del **salvaje**, que decía así:

Abencerrajes, levanten

Hoy sus **plumas** hasta el cielo"

الفارئ لرواية الحروب الاهلية في غرناطة لا يرى وجود للاساطير العربية كزرقاء اليمامة مثلا او شخصية كلكامش او الالهة عشتار وانما يلجأ دائما الى الاساطير الاغريقية والغربية وهذا ما يؤكد انتماء الرواية الى الادب الدعائي والتبشيري.

في مشاهد اخرى يلجأ الكاتب الى نوع اخر من الرموز وهي استخدام الحروف على ملابس شخصياته للتعبير عن مشاعر واحاسيس ابطاله. فنرى في العديد من المشاهد الاحتفالية والقتالية سيدة بثوب مطرز بالحرف الاول من فارسها او فارس في مبارزة تريندي ملابس قتالية ويحمل راية مطرزة بالحرف الاول من اسم المرأة التي يحبها او التي يخدمها وهو تقليد من تقاليد فرسان العصور الوسطى.

"Fátima no partía los ojos de su Abenámbar,... y muy bien lo concía Fátima por las señas de un pendoncillo morado que Abenamar llevaba en su lanza, con una **F** de plata y encima una media luna de oro, armas y divisa de la hermosa **Fátima**"

"Fátima estaba junto a la reina, muy ricamente vestida de damasco verde y morado, de la color del pendoncillo que le enviara a Muza. Tenía por toda la ropa sembrada muchas **MM griegas**, por **primera letra del nombre** de su amante **Muza**"

نلاحظ ان اضافة كلمة *griega* محالة من الكاتب لاقناع القارئ بان هذا التقليد موجود في المورث والثقافة الشرقية لكن هذا غير صحيح. خينيس بيرث دي ايتا حاول طيلة فصول روايته التاكيد على الثقافة والموروث والتقاليد الغربية و اظهار شخصياته ذات الاصول العربية بصفات وعادات غربية وهي العادات والصفات الاصح من وجهة نظر الكاتب. مما يؤكد استنتاجنا بان هذه الرواية تنتمي الى الادب التبشيري او الادب الدعائي.

أ.م.د. شذى كريم عطه الشمري

رئيس قسم اللغة الاسبانية